

الأساطير الإسلامية

للدكتور جواد على

من الموضوعات الجديدة بالناية موضوع : « الأساطير الإسلامية وأثرها على العقيدة الأوربية » ، وهي أساطير عربية جاهلية اختلعت بمناصر أعجمية في المصور الإسلامية التي امتزجت فيها ثقافات مختلفة متنوعة .

ولما بحث العالم الإسباني « ميكول آسين Miguel Asin » في « الكوميديا الإلهية » « Divina Comedia »^(١) للشاعر الإيطالي الشهير « دانتي » Dante^(٢) ، تطرق إلى ذكر العناصر التي أخذ منها هذا الأديب « الفلورنسي » الكبير تلك الصورة البديعة التي رسمها من أوربية وشرقية ، وقد اضطر إلى التعرض للقصص الإسلامية التي كانت قد شاعت في إيطاليا أيام هذا الشاعر ، فقسمها إلى أقسام وفصول مثل الأساطير الأوربية التي أخذت من « معراج الرسول » ، والقصص التي انتزعت من وصف الجحيم عند المسلمين ، ثم القصص التي أخذت من أوصاف الجنة ؛ وبحث في القصص المختلفة المعروفة مثل أصحاب الكهف والخضر وقصة « بولوقيا » والرحلات الخيفة إلى البحار ، وقصص الحيتان البحرية التي تظهر في البحر على صورة جزر هائمة^(٣) .

وقد بحث مستشرقون آخرون في تأثير القصص الإسلامية في القصص الأوربية ، وفي أثر الأساطير العربية في أساطير أوربا في القرون الوسطى^(٤) ، وفي كيفية انتقالها إلى أوربا . وعلى بعض هذه القصص طابع إسلامي واضح ، وعلى بعضها أثر التكيف الجديد الذي طرأ عليها في المحيط الأدبي الذي حلت به .

ومن الأساطير الأوربية القديمة قصص مقامرات البحارة ومخاطرات البحار ومجائب المخلوقات في هذه المحيطات الشاسعة ، وهي قريبة من القصص العربية الواردة في كتاب عجائب المخلوقات^(١) ، وفي الكتب المؤلفة في حياة الحيوان^(٢) ، وفي كتب السباح الرب الذين دونوا ما شاهدوه في تلك البحار . ومن أمثال هذه الأساطير الأوربية القريبة من الأساطير العربية قصة رحلة « هارولد النرويجي »^(٣) ، ورحلة « كورم الدانماركي » Gorm of Denmark ، ورحلة « مالدوين السكتي »^(٤) ورحلة « أبناء كونال درك أو كورا »^(٥) ، ورحلة « سانت برندن »^(٦) وهي رحلة حج بحرية مشهورة جداً لأراهب إيرلندي وقد جمع فيها عدة قصص لأهبان آخرين مثل « St Barintur » و « St Mernoc » و « St malo » و « St amorus » ، ونجوعة الرهبان « الأرموريكن » « Armoric monks »^(٧) وقد انتشرت في القرن العاشر الميلادي بين المسلمين كثير من القصص البحرية ، ويعود ذلك إلى توسع الحركة التجارية في خليج البصرة ، وبين سواحل البلاد العربية ، وسواحل الهند والصين وإفريقية الشرقية ، وقد تفرعت منها قصص عديدة ، منها ما دون في الكتب ومنها ما ذكر عرضاً بصورة مختصرة أو مبثورة . ومن هذه القصص قصة البحث عن الخضر ، وقصة رحلات السندباد البحري وقصة الجزيرة الخضراء وقصص الحيتان^(٨) .

وقد قارن المستشرق الهولندي « دي كويه » بين قصة « سانت برندن » ، وهي من القصص الإيرلندية وبين رحلة السندباد البحري ، وبعض قصص بحرية ذكرها الشريف الإدريسي ، وقصة « بولوقيا » « Bolugiya »

(١) راجع كتاب « عجائب المخلوقات » لغزوين طبعة ومثله ،

١٨٤٩ .

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ .

(٣) Asin p, 204

(٤) Dancona p, 105

(٥) Gorf 1, 93-126

(٦) Shroder Sanct Branden Erlangen 1871

(٧) Yoyt, 47

(٨) التالي .

(١) Miguel Asin, Islam and The Divine comedy London 1926

(٢) Pietro Fraticelli, Dante opere minori di dante Alighieri 3 vols Firenze 1908-12

(٣) Asin P, 204

(٤) أثر الفرق في العرب . تأليف جورج بطوب ترجمة الدكتور

لؤاد حنيت القاهرة ١٩٤٦ ، ٧٤ .

و « Reinaud » و « D'avenyae » ، أن هذه الجزيرة تشبه الجزيرة الأولى التي وصل إليها « السندباد البحري » وأصدقائه^(١) وقصة السندباد من القصص العربية المروفة ولعلها النموذج الأصلي لقصة « روبنسن كروسو » .

ونجد مثل هذه القصص في الكتب الدينية القديمة مثل : « التلمود » وهو بعد التوراة عند اليهود وعليه عندهم العمل في الأحكام الفقهية^(٢) . ومثل « الأستا » « Avesta » كتاب الفرس المجوس . وقد انتشرت أمثال هذه القصص بين المجازر والأطفال ولا زالت معروفة حتى اليوم .

وزعم نفر من المستشرقين أن قصة « سانت برندن » ، والقصص المشابهة لها هي من القصص الإيرلندية القديمة ، وقد عرقها الشرق عن طريق الصليبيين أو عن طريق أسبانيا ؛ ودلياهم على ذلك أن سمكة « الحوت » التي وصفت بالكبر والضخامة لا تعيش في مياه الشرق^(٣) .

وهذا الرأي لا يستند بالطبع إلى دليل ملموس ، ولا يمثل انتقال هذه القصة من إيرلندا إلى الشرق . وهناك أدلة علمية واضحة تنفي انتقالها من إيرلندا . فالجناح الكاتب البصري وقد عاش في نهاية القرن الثامن للميلاد إلى ما بعد منتصف القرن التاسع « ٧٨١ - ٨٦٩ م » يصف قصص البحارة عن الحيات البحرية فيقول : « فقد زعم هؤلاء أنهم ربما قربوا إلى بعض جزائر البحر وفيها النياض والأودية والحقائق وأنهم في بعض ذلك أوقدوا ناراً عظيمة فلما وصلت إلى ظهر السرطان ساح بهم وبكل ما عليه من النبات حتى لم ينج منهم إلا الشريد^(٤) » .

ويظهر من كتاب الحيوان أن مثل هذه الأساطير كانت معروفة في العراق ، وعلى الأخص في البصرة في أيام الجاحظ ، وربما كانت معروفة قبل عصر الجاحظ ، وأن قصة « السندباد البحري » التي شاعت بين الناس في القرن العاشر وما بعده أخذت من هذه القصص البحرية . وقد تطرق للفزالي في كتابه « إحياء

اختار « سانت برندن » النهاب إلى قلمة نائية لم تكن مأهولة في جزيرة لم تعرف إنساناً من قبل ، ولشد ما تملكه العجب حيناً وجد مائدة غنية بأنواع الأطعمة والأشربة فأكل منها وشبع وأطمع أصحابه ولم يؤثر ما أكلوه على كية الطعام^(١) .

وفي قصة « بلوقيا » التي رواها « عبد الله بن سلام » وهو يهودي اعتنق الإسلام تشابه مع قصة « سانت برندن » ، بلوقيا وهو حبر يهودي ، وكان والده « أوشيا » من أحبار اليهود وأغنياهم أراد البحث عن « محمد » وأمه ، فطاف بلاد الشام حتى بلغ جزيرة من جزائر البحر ، فإذا هو بحيات كأمثال الإبل عظما كلهن ثم مر بشجر كثير وبالم غريب يشبه ذلك العالم الذي مر به ذلك الراهب^(٢) .

وقصة « بلوقيا » هذه التي قصها الثعالبي استناداً على رواية « أبي بكر بن عبد الله المزرق » بإسناده عن عبد الله بن سلام هي قصة ، وإن كانت مطبوعة بطابع إسلامي إلا أنها من القصص الإسرائيلية البحث . ولابن سلام قصص أخرى تحمل نفس الطابع ، ويحشره العلماء وأصحاب الحديث لهذا السبب في تلك المجموعة التي اشتملت في إدخال « الإسرائيليات » إلى المسلمين بصورة حديث عن الرسول أو موعظة من المواعظ^(٣) .

ووجد هذا الراهب في جزيرة من الجزر أشجاراً فاقتطع من أغصانها مقداراً وأوقد ناراً ليصنع طاماً ، فلما تأججت النار تحركت تلك الجزيرة العظيمة وأخذت تموج ، فرى الراهب وأصدقائه بأنفسهم في اليم طلباً للنجاة ؛ إذ لم تكن تلك الجزيرة سوى سمكة عظيمة من نوع الحيتان البحرية^(٤) .

ويرى بعض المستشرقين مثل « دي كوية » « De goele »

(١) Rossi vittorio Storia della Lettera tura Italiana, (١) vol 1-5 ed milan 1911

(٢) عن عبد الله بن سلام راجع دائرة المعارف الإسلامية في هذه المادة قصة « بلوقيا » الثعالبي . قصص الأنبياء . ص ٢٠٧ .

(٣) Encyclopedie of islam vol, 1, article, abdallah ibn Salam.

(٤) Asin p, 20L ثارت ذلك برحلة عبد المطلب الحكيم . Chauvin vol 7 p, 46

(١) Asin p 207

(٢) Asin p 207 Haolings arte Telmud.

(٣) Asin Abenmassarra, Appendix 1-133

(٤) كتاب الحيوان الجاحظ ص ٣٣ ، ٣٤ .

علوم الدين» إلى ذكر الحيتان^(١).

أما الجزيرة الثانية من مجموعة الجزر التي زارها القديس فعلى جزيرة نائية كانت مأهولة بالطيور المتكلمة وكانت أرواحها من طبيعة أرواح الملائكة^(٢). وفي قصة «بلوقيا» مثل هذه الطيور. فلما سأل «بلوقيا» أحدها قال «أنا من طيور الجنة، وأن الله قد بعثني إلى آدم بهذه المائدة لما هبط من الجنة، وإنى كنت معه حين اتى حواء وأباح الله له الأكل؛ وأنا، أنا من لندن ذلك الوقت، فكل غريب وغابر سبيل من عباد الله الصالحين يمر بها يأكل منها وأنا أمين الله عليها إلى يوم القيامة. فقال بلوقيا ولا تنفخ ولا تنقص؟ فقال طعام الجنة لا يتغير ولا ينقص. قال بلوقيا أفأكل منها؟ قال كل، فأكل حاجته، ثم قال له أيها الطائر وهل معك أحد؟ فقال معي أبو العباس يأتيني. فقال ومن أبو العباس قال الخضر عليه السلام، فلما ذكر الخضر وإذا به قد أقبل وعليه ثياب بيض فإخطا خطوة إلا نبت الحشيش تحت قدميه. ثم قال غمض عينيك فغمضهما، ثم قال له افتح عينيك فتفتحهما فإذا هو جالس عند أمه، فسألها من جاء به إليك؟ قالت طير أبيض يطير بك بين السماء والأرض فوضعك قدامى^(٣). وتشبه هذه الطيور الطيور المذكورة في قصة: «سانت مكاربوس» St. macarius^(٤). وقد ورد في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ذكر الطيور البيضاء، وقد فسرهما المفسرون بأنها الملائكة^(٥). وهو تفسير يتفق مع مذهب الأوربيين في تصوير الملائكة على أنها على صورة طيور بيضاء ذات جناحين طويلين.

ووجد «القديس» في جزيرة رهباناً كانوا يقتاتون بخبز الجنة لا يعرفون الهرم ولا يصل إليهم المرض، وكانوا لا يتكلمون

وفي قصة «ذى القرنين»^(١) وقصة «جزيرة الحكماء»^(٢). شبه كبير بهذه القصة. أما «المنب» المجيب الذي عثر عليه القديس في الجزيرة فله أصل في الحديث المنسوب إلى الرسول إذ يروى أن جماعة سألوا الرسول عن الكرم وهل ينبت في الجنة، فأيد الرسول وجوده فيها، وأبان لهم أن الحبة الواحدة لتسكن الرجل وعائلته^(٣). وهو يمثل على كل حال رأى الناس في المنب وهو رأى يشابه رأى الأوربيين في عنب جزيرة القديس. وفي الأدب العربي عدد لا يحصى من هذا النوع من القصص وقد جمع قسماً منها الثعالبي في كتابه «قصص الأنبياء» وتجد طائفة أخرى في تفسير الخازن^(٤)، وأكثرها من صنع من أسلم من اليهود مثل عبد الله بن سلام وكعب الأحمق ووهب ابن منبه وأضرابهم. وروى بعضها عن عبد الله بن عباس^(٥). وتعرف هذه القصص عند المسلمين «بالإسرائيليات». والظاهر أنها عرفت عند المسيحيين كذلك إما عن طريق الكتب الدينية والتفسيرات الموضوعة على هذه الكتب، وإما عن طريق اليهود الذين انتقلوا إلى أوروبا في عصر الإمبراطورية الرومانية. غير أن وجود العناصر الإسلامية فيها يشعر أنها انتقلت بعد ظهور الإسلام، وأمل ذلك حدث بعد اختلاط الأوربيين بالعرب في الأندلس وفي إيطاليا وفي بلاد الشام وفلسطين، وبعد وقوعهم على كتب الأدب العربية ولا سيما كتب القصص منها، وفيها طائفة كبيرة تلائم العقيدة الأوربية والذوق الديني الذي كان يتحكم في نفوس أوروبا في القرون الوسطى حيث كان الحكم البابوي هو الحكم السائد، والثقافة الدينية هي الثقافة السائدة، وفي هذه القصص لون من ألوان هذه الثقافة.

جواد علي

(١) الراس ٢١١ -

(٢) Asin p 215 خريدة ٩٣ - ٩٤.

(٣) مختصر تذكرة القرطبي لشرابي ٨٧ - Asin.

(٤) الخازن، تفسير القرآن الجليل السمي لباب التأويل في معاني

التنزيل للخازن القاهرة ١٣١٨. تنوير للقياس من تفسير ابن عباس

لقنبروز أبي القاسم القاهرة ١٣١٦.

(٥) عن عبد الله بن عباس راجع Encyclopedie of yroiam

vol p 19noeldeké yeshché des goiran vol 8 p 190.

(١) إحياء علوم الدين ج ٣ - ٣١٨ طبعة القاهرة ١٣١٢.

(٢) Asin p, 209 فزّن ذلك بكتاب البيوطي شرح الصدور

بشرح حال الموق والقبور القاهرة ١٣٢٩

(٣) الراس ٢٠٨ وهناك قصص تشابهها في القنات الأوربية.

راجع خاتم سليمان.

(٤) Asin p, 210

(٥) Asin, 211 تذكرة ٨٧ مختصر تذكرة القرطبي لشرابي

القاهرة ١٣٠٨.